

انعكاسات الطقوس الدينية في الشعر الجاهلي دراسة لغوية وصفية

بقلم الدكتور/ عبدالمحسن القيسي

أستاذ مساعد - جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا

انعكاسات الطقوس الدينية في الشعر الجاهلي دراسة لغوية

وصفية

التمهيد

لاشك أن للدين وشعائره حسب مفهوم الدين وقتئذٍ أهمية بارزة في تكوين بعض الملامح المهمة في صور الشعائر العربية، وهو يصوغ بعض تلك الطقوس أو الشعائر شعراً يدعو قومه فيه إلى الالتزام بالقيم النبيلة والمثل التي يراها. أي الشاعر حديدية بالذكر والاهتمام، ولا ننسى مقولة (الشعر ديوان العرب) ¹ وهي مقولة تصور قيمة أثر العادات والتقاليد في الشعر الذي يُعدُّ سجلاً حافلاً لماثر العرب وقيمهم، أي بمعنى أنه يُمثِّلُ رصيدهم الفكري والثقافي. ومن هنا يبدو أن ذلك الشعر ذو مكانة متميزة في السجل الفكري والثقافي العربي. وسأدرس الطقوس الدينية وانعكاساتها في الشعر لأهميتها في حياة الشاعر العربي — إنساناً يُمثِّلُ ذاته، أو صوتاً هادياً ومرشداً يُمثِّلُ قبيلته.

جزيرة العرب

جزيرة العرب من عدن إلى ريف العراق طولاً ومن حدّة إلى أطراف الشام عرضاً ². ويطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها في الجنوب الغربي من آسيا جزيرة العرب، مع أن الماء لا يحيط بها إلا من ثلاث جهات: الخليج العربي وبحر عمان شرقاً، والمحيط الهندي جنوباً، وبحر القلزم (الأحمر) غرباً، وشمالاً تحدها أرض الجزيرة وبوادي الشام وفلسطين فهي على حسب الاصطلاح الجغرافي الحديث شبه جزيرة وليست جزيرة كما كان يسميها العرب القدامى.

كلمة عرب وأصل العرب

العملقة ¹.

قاله الأصمعي عبد الملك بن قريبل ¹ هـ. في كتاب الأصمعيات تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف ط 1 مص 100 م. ²

قيل سموا بذلك نسبة إلى أبيهم يعرب بن قحطان أصل العرب العاربة، وقيل لإعراهم في الكلام وفصاحتهم، وربما كان هذا أنسب، ويرى الأستاذ (تلكه) الألماني أن معنى كلمة (عرب) في الأصل صحراء، ويقال أيضاً: إن أصل عرب غرب بالعين المعجمة، لأنهم سكنوا الجهة الغربية من بابل (العراق) وعنها تفرقوا ولأن اللغة السامية لا توجد فيها العين فحرفت الكلمة إلى عرب بالعين المهملة.

والعرب من الشعوب السامية التي انحدرت في الأصل من سام بن نوح. وهذه

الشعوب تشمل الأحباش والفينيقيين والبابليين (الآشور والكلدان).

ويختلف المؤرخون في الموطن الأصلي لهذه المجموعة السامية، أكان بين دجلة والفرات

أم نفس جزيرة العرب، أم بلاد الأحباش، فالبعض يرجح أن مهدهم الأول كان بين دجلة والفرات (العراق) لأن ضفاف الأنهار هي المهد الأول لكل جنس ولكل حضارة قديمة، ولعلّ ما ورد من أن سفينة نوح بعد أن قضى الأمر استوت على الجودي (جبل جودار) في هضبة أرمينية بقرب النهرين يؤيد هذا الرأي، ومن ذلك المكان تفرق الساميون¹.

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، دار الكتب العلمية

بيروت، دت

العصر الجاهلي

لقد حرت العادة أن يقال لما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي، وهذا ليس صحيحاً على وجه الإطلاق، لأن العصر الذي يتناول كتاب الأدب العربي في هذه الأمة هو عصر محدود ضيق يقع كله قبل قرنين من ظهور الإسلام على وجه التقريب، وهذا هو الذي ينبغي أن يطلق عليه العصر الجاهلي في تاريخ العرب، أما ما سبق هذا من الأحداث في شبه جزيرة العرب فهو تاريخ قديم يسمى بتاريخ العرب قبل الإسلام لا بتاريخ العرب في الجاهلية. ويقال بأن أقدم حادثة تاريخية لها شهرتها في تاريخ العرب هي هجرة سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بوادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرم واختلاط سيدنا إسماعيل بجرهم من العرب البائدة وذلك حوالي سنة 2200 ق م¹.

أديان العرب قبل الإسلام

إنّ العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي فيهم على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد تلقوها من ولده نبي الله إسماعيل عليه السلام، وهي الحنيفية التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أشار القرآن الكريم إليها في سورة الحج (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم نعم المولى ونعم النصير)². فكانوا يعتقدون أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا وزير، ولا معين ولا ظهير. وأنه رجل شأنه موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات التي أثبتتها عز وجل لنفسه في كتبه وجاءت على لسان رسله السالكين الطريق المستقيم فهو موصوف بما وصف به نفسه، كما لا يليق بجلال قدسه وأن ذاته لا تشبه الذوات كما أن صفاته لا تضاهي الصفات

الأحكام السلطانية للماوردي ص 111.

سورة الحج رقم الآية 2.

البشرية (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ¹. فالله تبارك وتعالى متره عن كل ما لا يليق من صفات الأجسام وحوادث الأعيان والأجرام وهو المتفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وغير ذلك من خواص الألوهية التي لا يملكها إلا الإله.

والعرب القدامى عالمين أن لا معبود بحق في الوجود سواه فهو الإله الواحد الملتجأ إليه في جميع الأمور، المتوكل عليه في كل الشؤون، يستحيل وصفه بالظلم إذ هو الملك المقسط العدل، فهو المتفضل على خلقه وله الفضل تعالى على كل شبيهه ومعارضه، عالٍ على عرشه، دانٍ بعلمه من خلقه، أحاط علمه بالأمور، وأنفذ في خلقه سابق المقدر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ فالخلق عاملون بسابق علمه لا يملكون لأنفسهم من الطاعة نفعاً، ولا يجدون إلى صرف المعصية عنها دفاعاً، خلق الخلق بمشيئته من غير حاجة كانت به ولم يزالوا يترددون من قدر إلى قدر، وأمره سبحانه نافذ فيهم فلا ينجيهم حذر، والناس بأحلامهم ميتون، وبعد الضغطة في القبور مسؤولون، وبعد البلاء منشورون، ويوم القيامة إلى رحيم يحشرون، وكما بدأهم له من شقاء وسعادة يومئذ يعودون، وقد آمنوا بكل ما أنزل على سيدنا إبراهيم عليه السلام، من أصول وفروع وأحكام، وكانوا يصلون ويصومون، ويحجون ويزكون ويصلون الأرحام، ويعينون على نوائب الحق، ويكرمون الأضياف كل الإكرام، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والسجايا الحسنة، والأعمال المرضية السديدة فلما طال عليهم الأمد، وبعثوا عن زمن النبوة كثر فيهم الجهل، وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى والدين المبين، وجرأوا على شهوات أنفسهم، واتبعوا كل ناعق، وراحت عليهم الآراء الفاسدة، والمذاهب الخبيثة الكاسدة، حتى افترت كلمتهم كل الافتراق سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعي المتأثر عنه فيما ذكرناه سلفاً، وشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله تعالى، فهناك انقسمت العرب في التعبد إلى أقسام وافترقوا إلى أصناف حسبما أدت به الوسوس والأهواء.

الموحدون من العرب

¹ سورة الشورى رقم الآية ١٠١.

وهم من استبصر ببصيرته فاعترف بوجود الله وتوحيده، ولم يدرك دعوة سيدنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام، بل بقى على أصل فطرته، ونظر بعين بصيرته فلم يغير ولم يبدل، وهم البقايا ممن كان على عهد سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة^١ والوقوف على عرفة وهدى البدن والإهلال^٢ بالحج والعمرة وغير ذلك، وهؤلاء افرقوا فمنهم من بقى على أصل التوحيد وما استفاض من أفراد الله تعالى في عبادته التي تضافرت على الإرسال به جميع الرسل. ومنهم من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته كسيدنا عيسى عليه السلام. وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا إلا عدداً معلوماً في كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية.

والعمرة هي الحج الأصغر مأخوذة من الاعتماد وهو الزيارة، والتفصيل في الكتب الفقهية^١

جمع بدنة، قالوا هي الناقة أو البقرة تهدي للبيت العتيق والله أعلم^٢

أهل الملبى رفع صوته بالتلبية وأهل المحرم بالحج إذا لبى ورفع صوته.^٣

المبحث الثاني: الطقوس الدينية في الشعر العربي القديم

يجب قبل الحديث عن الطقوس الدينية، تبيان الدلالة اللغوية والدلالة الاصطلاحية (للفظة الدين) فالدين العادة^١ والدين الطاعة^٢. بيد أن الدين في نظر العربي قبل الإسلام "هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة والقيم بطقوس وعبادات لها"^٣ فمن هذه المعاني يمكن القول: إن العادة المطردة هي العرف، غير أن ثمة فرقاً بين العرف والدين، فالعرف عادة سادت بين أفراد المجتمع بعد إقراره لها، أما الدين فهو الدعوة إلى عبادة إله واحد مطلق هو الله تعالى، ولا شك في أن العربي عصرئذٍ أدرك الحقيقة التي وازنت بين معايير الحياة والاتصال بالله تعالى بوساطة تعاليم الأديان^٤.

لقد انطلقت الأديان السماوية من الأرض العربية، حمل رايها أبناء تلك الأرض مشرقة ومغربية؛ تبشر بتعاليم الله تعالى، ابتداء بالحنيفية وانتهاء بالإسلام، فالأمة العربية اصطفاها الله تعالى من سائر الأمم لنشر تعاليمه، وما من شك في أن الحنيف في عصر ما قبل الإسلام من كان على دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، وحينما نقول الحنيفية إنما نقصد فكرة التوحيد، على الرغم من أن الوثنيين كانوا يطلقون على أنفسهم الأحناف^٥، وكان يسمى بالحنيف قبل الإسلام، من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويغسل مواته ويختن^٦، أما اليهودي فمن كان على دين سيدنا موسى عليه السلام، والنصراني من كان على دين سيدنا عيسى عليه السلام، والوثني من كان يعبد الأصنام.

١. العرف

٢. العرف

٣. محاضرات في تاريخ العرب، وينظر حضارة العرب في عصر الجاهلية.

٤. ينظر الأغاني، من باب الشاهد من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله

والناس.

٥. أمالي الزجاجي، وينظر المخبر، ولسان العرب ملدة حنيفة، والحياة والموت في الشعر

الجاهلي.

٦. ينظر لسان العرب: مادة حنيفة.

ولكن من خلال ما بينه الزجاجي وابن منظور ومما أطلقه الوثنيون على أنفسهم يمكننا القول: أن الحنيف هو من وحد الله تعالى، ولا شك في أن لكل دين أتباعاً وطقوساً وشعائر، وأن الشعر العربي قبل الإسلام ليس إلا تقريراً للواقع وصورة للقيم الاجتماعية والطقوس الدينية، وما الشعر إلا صورة من صور تلك الحقة الزمنية، ويمثل تأمل الشعراء في قضاياهم وقضايا الناس والحياة^١.

فلقد أفاد الشاعر قبل الإسلام من تعاليم الأديان وشعائرها في تأملاته الفكرية مجسداً للحقائق التي تواترت في كل الأديان كحقيقة وجود الخالق وحثمية الموت والمجهول والمعاد فضلاً عن الوثنية أيضاً.

وجاء تجسيد الشعراء في عصر ما قبل الإسلام وجود الله تعالى بطرائق عدّة، فالسؤال بن عاديّا يبيّن القدرة الآلية في الخلق:

نُطْفَةٌ مَا مُنِيَتْ يَوْمَ مُنِيَتْ أُمِرَتْ أَمْرَهَا وَفِيهَا بُرِيَتْ
كَنَّهَا اللَّهُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ وَخَفِيَ مَكَانُهَا لَوْ خَفِيَ^٢
غير أن امرأ القيس يصرّ على أن الله خير مرجو:

اللَّهُ أَنْجَحَ مَا طَلَبْتُ بِهِ وَالْبُرُّ خَيْرُ حَقِيبةِ الرَّحْلِ^٣
في حين يصرّح المتلمس الضّبّعي عن ثقة وإصرار مدعومين بالحقيقة الواضحة أن تقوى الله خير عدّة يحملها بنو الإنسان:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّيْ غَيْرَ ظَنِّ وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعِتَادِ^٤

إلا أن النابغة الذبياني من خلال حاتمة قصيدته التي مطلعها:

عَفَا ذُو حُسٍّ فَرَوْتَنِي فَالْفَوَارِعُ فَجَنَّبَا أَرِيكَ فَالْقَلَاعُ الدَّوَابِعُ^٥

^١ ينظر الأصول الفنية للشعر الجاهلي [] [] [] [] .

^٢ شعر السمائل [] [] [] [] .

^٣ ديوان امرئ القيس [] [] [] [] والنجح إدراك الرجل ما يطلبه، وحقيبة الذخيرة.

^٤ ديوان المتلمس الضّبّعي [] [] [] [] .

^٥ ديوان النابغة الذبياني [] [] [] [] ذو حسي والفوارع وأريك أسماء مواضع.

يؤكد للنعمان حقيقة العدالة السامية المتمثلة بحكم الله تعالى في شعره:

أبى الله إلا عدلَهُ ووفــــــــــــــــاءهُ فلا التُّكْرُ مَعْرُوفٌ ولا العُرْفُ ضَائِعٌ^١
وفي شعر الأعشى يتمثل جلالة الله تعالى وعظمته عز وجل، من خلال وحدانية الله سبحانه وتعالى وأنه بيده كل شيء ومنه يستمدّ العون ولا شيء في الحياة كنتقوى الله تعالى،
ناهيك عن الميتة التي لا خيار فيها، وأن حكمه تعالى هو الحق:

وإن تُقَى الرحمن لا شيءَ مِثْلَهُ فصبراً إذا تَلَقَى السَّحَاقَ العَرَاثِيَّ^٢
وَرَبِّكَ لا تُشْرِكُ بِهِ إِنْ شِرَكَكَهُ يَحُطُّ من الخيراتِ تلك
البواقِي^٣

بلُ الله فاعبُدْ لا شَرِيكَ لوجهــــــــــــــــهِ يَكُنْ لَكَ فيما تكدح اليَوْمَ راعيــــــــــــــــاً^٤
وكل ذلك مستمد من الكتب السماوية:

وإياكَ والميتاتِ لا تَقْرَبْنَهُنَّ^٥ كفى بكلامِ الله عن ذاك
ناهيــــــــــــــــاً^٥

في حين حسد عدي بن زيد من خلال إيمانه بطقوس دينه وشعائره وكتابه المقدس كيفية بدء الخليقة بقوله: اسمع حديثاً كما يوماً تُحدِّثُهُ عن ظَهْرٍ غَيْبٍ
إذا ما سألْتُ سَألاً

أَنْ كَيْفَ أبْدَى إلهُ الخلقِ نِعْمَتَهُ فينا وَعَرَفْنَا آيــــــــــــــــاتِهِ الأوْلاً
كانتُ رِباحاً وماءً ذا عُرْائِيــــــــــــــــةٍ وظُلْمَةً لم يَدْعُ فِتْناً ولا خِلالاً^٦
فأَمَرَ الظُّلْمَةَ السوداءً فأنكشفتْ وَعَزَلَ المَاءَ عَمَّا كان قد شَغَلاً

المصدر نضله^١.

□□ السحاق البعد والسحق البعيد، ومنه كذلك السَّحَق (بفتح السين) وهو الثوب البالي، والغرات جمع غرثان وهو الجائع من الفعل (عَرِثَ كَعَلِمَ) والصبر هنا: الكفالة

البواقِي ثوب الأخوة الذي يبقى ويدوم^٢

ديوان الأعشى الكبير □□□.

نفس المصدر.

العرائية بالضم مد السيل.

وَبَسَطَ الْأَرْضَ بَسْطًا ثُمَّ قَدَّرَهَا
تَحْتَ السَّمَاءِ سَوَاءً مِثْلَ مَا فَعَلَا
وَجَعَلَ الشَّمْسَ مَصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ
بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلَا
قَضَى لِسِتَّةِ أَيَّامٍ خَلِيقَتَهُ
وَكَانَ آخِرَهَا أَنْ صَوَّرَ
الرَّجُلَا^١

ويبدو أن عدياً قد أفاد من تعاليم دينه في شعره كما في قوله:

ليس شيءٌ على المنونِ ببياقٍ غيرَ وجهِ المُسَبِّحِ الخِـلَاقِ^٢
وفي قوله:

رَحِمَ اللَّهُ مَنْ بَكَى لِلخَطَايَا
كُلُّ بَاكٍ فَذَنْبُهُ مَغْفُورٌ^٣
وفي قوله أيضاً:

فَدَعَ البَاطِلَ وَأَعَمَدَ لِلتَّقْوَى وَتَقَى رَبِّكَ رَهْنٌ لِلرِّشْـدِ
وَقُلُّ المَعْرُوفِ فَيَمَنْ قَالَ— وَآمَنَعَ نَفْسَكَ مِنْ قَبْلِ الفَنَادِ^٤
أدرك (لبيد) أن مصير الحياة الزوال وعرف أن حمد الله وشكره أسمى الأعمال وله
الفصل والفضل في كل شيء، إن هذه المعرفة ببعض طقوس الأديان السماوية وشعائرها قبل
الإسلام هي مصدر تأملات (لبيد) الشعرية كما يصورها مثل قوله:

قُضِيَ الأَمْرُ وَأُنْجَزَ المَوْعُودُ وَاللَّهُ رَبِّي مَا جَدُّ مُحَمَّدٌ—
وَلَهُ الفَوَاضِلُ وَالنَّوَافِلُ وَالْعُـلَا وَلَهُ أَثِيثُ الخَيْرِ وَالمَعْدُودُ^٥

ديوان عدي بن زيد العبادي [١].

المصدر نفسه [٢] وينظر ديوان عبيد بن الأبرص [٣].

وما تبتغي من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن ينال خلودا

وليفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجه المعبودا

المصدر نفسه [٤].

المصدر نفسه [٥] الفند الكذب، وينظر الحارث بن ظالم المري [٦].

أصابهم الدهر الختور بختره ومن لا يق الله الحوادث يعثر^٦

شرح ديوان لبيد بن ربيعة العاملي [٧].

حمدتُ اللهَ واللهُ الحميدُ —————
 فإنَّ اللهَ نافلةٌ تقــاهُ
 واللهُ المؤثِّلُ والعديــدُ
 ولا يقناها إلا
 السعــيدُ^١

وعندما نمعن النظر في تأمل الوثني نجد رافضاً ما لا يقرّ حينما تتكشف له الحقائق،
 وصراخه دليل على رفضه الأصنام في قوله:

أربُّ يبولُ الثُعْلُبَانُ برأســه لَقَدْ دُلُّ من بآلتِ عليه الثُعَالُــبُ^٢
 غير أن أوس بن حجر يقسم باللات والعزى قسماً خالياً من المعنى الديني، وما قسمه
 هذا إلا لشعوره غير الإرادي ولحاجته لذلك القسم، لأنه حينما وجد نفسه بحاجة لإحقاق
 الحق عاد مقسماً بالله ومعتزفاً بأن الله تعالى هو الكبير:

وباللاتِ والعزَّى ومن دان ديوــنها
 وباللهِ إنَّ اللهَ مِنْهُنَّ أكبرُ^٣

فحقيقة الوجود لا جدال فيها وإدراك العربي لهذه الحقيقة في عصر ما قبل الإسلام بات
 واضحاً، فهي قائمة في عالمه، ويدرك أيضاً أن الأمور لا تجري إلا بأمر من عند الله تعالى:

يُجِبُّ المرءُ أنْ يلقي منــاهُ
 ويأبى اللهُ إلا ما يشــاءُ^٤

ومما لا ريب فيه أيضاً أن العربي وقتئذٍ أدرك حتمية الموت وجسد هذه الصورة
 بأشكال مختلفة مستقاة من محيطه صبّت في معين الحقيقة، وأن العربي حينما بين الموت الذي لا
 مفر منه، طلب توسم الصبر لا الجزع:

وكُلُّ نفسٍ امرئٍ وإنْ سلمــتْ يوماً ستحسو لميتةً حــرعاً
 أيتها النفسُ أجملِي حــزعا إنَّ الذي تحذرينَ قدْ وقــعا^٥

المصدر نفسه [١].

مجمع الأمثال [٢] وينظر شرح شواهد المغلبي [٣] وأمرء الشعراء في العصر الجاهلي [٤].

ديوان أوس بن حجر [٥].

ديوان قيس بن الخطيم [٦].

ديوان بشر بن أبي خازم [٧]، وينظر ديوان أوس بن حجر، حيث تداخلت قصيدتا أوس وبشر في ديوان

بشر. ^٥

ويبدو عدي متأثراً وتأثراً واضحاً وحلياً بتعاليم النصرانية حينما يهجر الحياة الدنيا
متعظاً بما يفنى:

اذهي إنَّ كُلَّ دُنْيَا ضَالَّةٌ وَالْأَمَانِي عَقْرَهَا لِلتَّبَابِ^١
لَا يَرَوْفُنْكَ صَائِرٌ لِفَنَاءِ كُلِّ دُنْيَا مَصِيرَهَا لِلتُّرَابِ^٢
فالموتُ آتٍ اليَوْمَ أَوْ غَدًا، وَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ:

أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ وَلَا أرى بعيداً غداً مَا أَقْرَبَ اليَوْمَ من غدا^٣
وكقول أبي دؤاد الأيادي:

وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا سَيَدْخُلُهُ النُّكْرَاءُ وَالْحُسُوبُ^٤
وَكُلُّ مَنْ خَالَ أَنْ المَوْتَ مُحِطُّهُ مُعَلَّلٌ بِسَوَاءِ الحَقِّ مَكْدُوبُ
وَقَدْ أَرَانِي أَمَامَ الحَيِّ مُكْتَلَفًا ثَغْرًا بِهِ من دَوَاعِي المَوْتِ تَتَوَيْبُ^٥
لكنَّ (زهيراً) صَبِرَ دَائِمًا للحياة الفانية لكي تسمو الأعمال الطيبة على الأعمال الخبيثة
على الرغم من حب

النفس للحياة وكرهها للموت:

فَلَوْ كَانَ حَمْدٌ يُحِلُّدُ النَّاسَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُحِلِّدِ
وَلَكِنْ فِيهِ بَاقِيَاتٍ وَرَائِنَا تَزُودُ فَأَوْرَثَ بَنِيكَ بَعْضَهَا وَتَزُودُ
تَزُودُ إِلَى يَوْمِ المَمَاتِ فَإِنَّهُ وَلَوْ كَرِهْتَهُ النَّفْسُ آخِرَ مَوْعِدِ^٦

التبأب الهلاك.^١

ديوان عدي بن زيد العبادي^٢.

ديوان طرفة بن العليل^٣.

الحوب بالضم والحاب الإثم^٤

شعر أبي دؤاد الأيادي^٥ ومعنى مكتلفاً حافظاً، وتثويب أي يصبح فيه الموت مرة بعد مرة، وينظر
شرح ديوان علقمة الفحل^٦.

وكل حصن وإن طالَّت إقامته على دعائمه لا بد مهدوم

وديوان عنترة^٦ تعالوا إلى ما تعلمون فإنني أرى الدهر لا ينجي من الموت ناجياً

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى^٦.

وَأَنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا مَحَالَةَ:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا حَبَطَ عَشْوَاءَ مِنْ تَصَبُّ^١ تَمْتُهُ وَمِنْ تَخْطِيءٍ يُعَمَّرُ فِيهِمْ^١
 بيد أن (المرزباني) يعترض على ذلك قائلاً: "أنه كان يسمع المشايخ يقولون هذا بيت
 زندقة"^٢ فيبدو أن البيت قد اقتطع وبني الحكم مبتوراً ولو كان الحكم قائماً لكان من الصواب
 بمكان لا سيما قوله:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنَّهُ^٣ وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ سِئْلَمِ^٢
 لأن الكتب السماوية مسخت صورة الضلال حتى تمحضت الحقائق واضحة أمام
 العربي في عصر ما قبل الإسلام: أبلغُ جُدَاماً وَلِحْمًا إِنْ عَرَضَتْ لَهُمْ وَالْقَوْمُ يَنْفَعُهُمْ عِلْمٌ إِذَا
 عَلِمُوا

بَأْتِكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِخْوَانِنَا إِذَا تَقَسَّمَتْ الْأَرْحَامَ وَالنَّسَمُ^٤
 لذلك بقي ما في الغد مجهولاً لا يدرك كنهه إلا الله تعالى، كقول الربيع:
 أَقُولُ وَلَمْ أَمْلِكْ لِنَفْسِي نَصِيحَةً أَرَى مَا تَرَى وَاللَّهُ بِالْغَيْبِ أَعْلَمُ^٥
 وكقول عنتره:

فَلَا تَكْفُرِ التُّعْمَى وَاتْنِ بِفَضْلِهَا وَلَا تَأْمَنْنَ مَا يُحَدِّثُ اللَّهُ فِي غَدِ^٦
 وكقول عمرو بن كلثوم:
 فَإِنَّ غَدًا وَأَنَّ الْيَوْمَ رَهْنٌ وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا
 وَإِنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا الْمَنَايَا مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدَّرِينَ^٧
 وكقول أحيحة بن الجلاح الذي فيه فصل الخطاب:

المصدر نضله^١.

الموشح^٢.

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى^٣.

ديوان عبيد بن الأبرص^٤ التسم نفس الروح، والناس.

شعر الربيع بن زياد^٥.

ديوان عنتر^٦.

شرح القصائد التسع المشهورات^٧.

فهل من كاهنٍ أو ذي إلهٍ إذا ما حان من ربٍّ أُقولُ
 يُراهنني فيرهني بنبيهِ وأرهنه بني بما أُقولُ
 وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيلُ
 وما تدري وإن ألقحت شولاً أتلقح بعد ذلك أم تحيلُ
 وما تدري إذا ذمرت سقياً لغيرك أم يكون لك الفصيلُ^١

ويبدو زهير أكثرهم وضوحاً ودقة في تقرير هذه الحقيقة:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكنم الله يعلم^٢

فلم يكنفي الشاعر العربي قبل الإسلام بتجسيد تلك الحقائق، وإنما قد حسد البعث
 ويوم الحساب في مواضع كثيرة كقول عدي:

وعند الإله ما يكيدُ عباده وكُلاً يُفيه الجزاء بمثقال^٣

وكقول الأحنس:

وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال^٤

وكقول (زهير) الذي قال فيه الأصمعي "جامع زهير قوماً من يهود أي قارهم فسمع

بذكر المعاد فقال^٥:

يُؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يُعجل فينقسم^٦

فضلاً عن حكم الأصمعي في أمية "ذهب أمية في شعره بعمامة ذكر الآخرة"^٧

يقف الناس للحساب جميعاً فشتقي معذبٌ وسعيد^٨

١ جمهرة أشعار العرب، السقبة ولد الناقة

٢ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.

٣ ديوان عدي بن زيد العبادي.

٤ المحبر.

٥ فحولة الشعراء تحقيق عبد المنعم خفاجي، وتحقيق توري.

٦ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.

٧ الأغاني، وينظر "أمية بن أبي الصلت، حياته وشعره".

٨ أمية بن أبي الصلت حياته وشعره.

ولذلك قال ابن سلام "وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره" ^١، وقد أدرك الوثني يوم البعث لذلك كان يود أن تربط راحلته عند قبره ليمتطيها كقول جريرة بن أشيم الفقعسي:

يا سعدُ إِمَّا أَهْلَكَنَّ فَإِنِّي أوصيكَ أنْ أخا الوصاةِ الأقربُ
لا تتركَنَّ أباكَ يعثرُ راحلاً في الحشرِ بصرعٍ لليدينِ وينكبُّ
واحملْ أباكَ على بعيرٍ صالحٍ وتقِ الخطيئةَ إنَّ ذلكَ أصوبُ
ولقُلْ لي مما جمعتُ مطيةً في الهارِ أركبها إذا قبيلِ أركبوا ^٢
وكقول عمرو بن زيد الكلبي:

أبنيَّ زودني إذا فارقتني في القبرِ راحلةً برحلي قاترِ
للبعثِ أركبها إذا قبيلِ اضعنوا مستوسقين معاً لحشرِ الحاشرِ
مَنْ لا يُوافيه على عيرانيةٍ والخلقُ بين مدفعٍ أو عائرٍ ^٣

الخاتمة

إنَّ هذه الأمثلة والشواهد الشعرية تظهر العربي قبل الإسلام إنساناً يعرف الذات الإلهية بمفهومها الديني، كما أدركها من خلال اتصاله المباشر أو غير المباشر بالأديان السماوية المعروفة في عصره، وهي اليهودية في يثرب، والمسيحية في نجران ^٤ والحنيفية في عموم شبه الجزيرة العربية وفي مكة على وجه الخصوص. أما الأصنام والأنصاب التي ورد ذكرها عند ابن الكلبي ^٥ فإنها مظهر شكلي يمثل الجانب الساذج من حياة العربي عصرئذٍ. وهي رموز دينية خالية من أية دلالة فكرية متعلقة

١. طبقات فحول لشعر العرب.

٢. المحبوس للحشر.

٣. المصدر نفسه.

٤. السيرة النبوية.

٥. ينظر الأصنام.

بالإيمان والعقيدة الراسخة في عقل العربي ووجدانه، وقد عرفنا أن قسم الوثني بما هو قسم وقتي سرعان ما يزول بزوال الحاجة إليه. وقد تجلّت هذه المعرفة الدينية في شعر العرب قبل الإسلام مصدراً استمد منه الشاعر العربي كثيراً من تأملاته، وصاغ فيها كثيراً من أفكاره التي حددت علاقته بالكون والوجود والطبيعة.

المصادر والمراجع

- الأصنام، أبو المنذر هشام الكلبي ت 204 هـ مطبعة دار الكتب ط2 مصر 1924م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ت 356 هـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب
مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت د،ت.
- أما لي الزحاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزحاجي ت 340 هـ تحقيق عبد
السلام محمد هارون المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ط1 القاهرة 1382 هـ.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ت 175 هـ تحقيق د. مهدي المخزومي و د.
إبراهيم السامرائي دار الرشيد وزارة الثقافة والإعلام - العراق - 1981م.
- فحولة الشعراء، الأصمعي تحقيق عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني المطبعة المنيرية
ط1 القاهرة 1953م.
- محاضرات في تاريخ العرب - الدكتور صالح أحمد العلي مطبعة الإرشاد بغداد ط 4
1968م.
- السيرة النبوية، ابن هشام ت 213 هـ تحقيق مصطفى السقا وآخرون، شركة ومطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط2 مصر 1955م.
- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ت 711 هـ طبعة
مصورة عن طبعة بولاق الدار المصرية للتأليف والترجمة د،ت.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د. مصطفى عبد اللطيف جيساويك، منشورات
وزارة الإعلام دار الحرية بغداد 1977م.
- الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د. سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب القاهرة 1977م.
- شعر السؤال، تحقيق عيسى سابا، مكتبة صادر بيروت 1951م.
- ديوان عنتر، تحقيق ودراسة محمد رشيد مولوي المكتب الإسلامي لبنان 1970م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4 مصر 1984م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين دار النهضة
العربية بيروت 1974م.

- ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق كامل الصرفي، معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية القاهرة 1970م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ط 2 القاهرة 1985م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه محمد جبار المعبيد دار الجمهورية بغداد 1965م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط1 مصر 1957م.
- الحجر، أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي ت245هـ تحقيق د. أيلزه ليختن شتير دار الآفاق الجديدة بيروت د،ت.
- الحارث بن ظالم المرّي الوافي الفاتك، تحقيق د. عادل حاسم البياتي، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد العدد 15، 1972م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د. إحسان عباس، الكويت 1962م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني ت 518هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار القلم بيروت د،ت.
- شرح شواهد المعني، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ تصحيح وتعليق محمد محمود الشنقيطي وقف على طبعه وعلّق على حواشيه أحمد ظافر كوجان دار مكتبة الحياة بيروت د،ت.
- أمراء الشعر العربي في العصر الجاهلي، بيناتهم، حياتهم، فنّهم، دراسة تحليلية نقدية، د. صلاح الدين الهادي مكتبة الشباب 1975م.
- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار صادر ط2 بيروت 1967م.
- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق د. عزت حسن، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1960م.
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت لبنان، 1980م.

- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق د. علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1958م.
- ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصّقال ودّرية الخطيب، مطبعة الأصيل، ط 1 حلب 1969م.
- شعر أبي دؤاد الأيادي، جمع غوستاف غرونباوم، ضمن دراسات في الأدب العربي، ترجمة د. إحسان عباس وآخرون مكتبة الحياة بيروت 1959م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1944م. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1964م.
- الموشّح، مأخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ت 384هـ تحقيق محمد علي البجاوي دار نهضة مصر 1965م.
- شعر الربيع بن زياد، تحقيق د. عادل حاسم البياتي مجلة كلية الآداب العدد الرابع عشر مطبعة المعارف بغداد 1971م.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، أبو بكر الأنباري، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف ط4 القاهرة 1980م.
- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، القرن الخامس الهجري تحقيق محمد علي البجاوي دار نهضة مصر للطبع والنشر ط 2 القاهرة 1967م.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي ت 231هـ تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة 1974م.
- أمية بن أبي الصلت، حياته وشعره دراسة وتحقيق بهجت عبد الغفور، مطبعة العاني بغداد 1975م.